مقياس: مدخل إلى اللسانيات
السنة الأولى/ ترجمة

المحاضرة التاسعة: لسانيات دي سوسير

من هو فرديناند دي سوسر؟:** هو عالم سويسري ومؤسّس اللسانيات الحديثة، وُلد في (26 نوفمبر 1857) بجنيف من عائلة فرنسية هاجرت إلى لوزان في نهاية القرن 16، تلقى تعليمه الأول في مسقط رأسه، والتحق بجامعة جنيف سنة (1875) ليتخصّص في الفيزياء والكيمياء، لكنه شعر بالميل لدراسة اللغة، فدخل سنة (1876) كلية جنيف ليدرس فيها اللغة اللاتينية والسنسكريتية والإغريقية، وفي السنة نفسها انتقل إلى برلين بألمانيا ودرس بجامعة ليبزيغ (Leipzig) وتخصّص في اللغات الهندو-أوروبية، وبعد عامين من البحث، نشر كتابه الموسوم (le système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes***) "**النظام البدائي لحروف العّلة في اللغات الهندو أوروبية**" ولم يتجاوز عمره آنذاك 21 سنة، وانجز سنة 1880 رسالة الدكتوراه بعنوان (الاستعمال المبتكر في السنسكريتية)، انتقل بعد ذلك إلى مدرسة باريس، واشتغل فيها مدرسا من سنة 1881 إلى غاية 1891، ثمّ عاد إلى جامعة جنيف سنة 1891 وتولى فيها تدريس "السنسكريتية والقواعد المقارنة"، وفي سنة 1906 تولى تدريس "منهج اللسانيات العامة"، حيث قدّم للطلبة سلسلة من المحاضرات بين 1906 و1911، وتوفّى سنة 1913، وبعد وفاته قام طلبته (*Charles Bailly*) و (*Albert Séchehaye*) بجمع محاضراته ونشرها سنة 1916 في كتاب عنوانه "محاضرات في اللسانيات العامة (cours de linguistique générale).

1- مبادئ لسانيات سوسير: يُعتبر هذا العالم مؤسس المنهج البنوي[1] الذي قامت عليه اللسانيات الحديثة وكل المدارس اللسانية البنوية. وانطلق دي سوسير من الأسس التالية:

* اعتباره اللغة ظاهرة اجتماعية، ينبغي دراستها وفق هذا المبدأ.

* السعي إلى الكشف عن القوانين الكليّة للغة البشرية.

***البنية (النظام)**: يصف سوسير اللغة بأنّها "نظام من العلامات" ويُعرِّف النّظام بأنّه "كلية منظمة مكوَّنة من عناصر متضافرة لا يمكن تعريفها إلا في ضوء علاقاتها ببعضها البعض حسب موقعها داخل الكلية" (عن دي سوسير). فهو ينظر إلى نظام اللغة من الداخل بالتركيز على الوحدات المكوّنة له بوصفها كلاً قائما

[1] – ينبغي التمييز بين المنهج البنوي كمنهج عام، الذي تجاوز الدرس اللساني ليشمل علوم كثيرة (كالأدب، وعلم النفس، والنقد، والأنتروبولوجيا، وعلم الاجتماع، والفلسفة...) واللسانيات البنوي، أو الدرس اللساني الذي يتّخذ هذا المنهج أداة للتعامل مع الظواهر اللغوية.

بذاته، وبالتالي، فإنّ النظام اللغوي، حسبه، شبكة من "العلاقات الباطنة له قوانينه الخاصة "، حيث يؤدي تغيير في العلاقات إلى تغيير في النظام، وكذلك تتحدّد قيمة كلّ وحدة لغوية في التركيب بالنظر إلى الوحدات المحيطة بها داخل التركيب ذاته.

وتتكوّن اللغة من مجموعة من الأنظمة الفرعية وهي: النّظام الصوتي، النّظام الدّلالي، النّظام النّحوي، والنظام الصرفي.

والبنوية هي" منهجٌ عامٌ يأخذُ اللغة على أنها بناء أو هيكل، تشبه الهيكل الهندسيّ من حيث تشابك وحداته ذات الاستقلال الداخليّ، تتحد قيمتها بالعلاقاتِ الداخليّة بيـــنها، وتدرس البنوية اللغة باعتبارها بنية مستقلة عن المتكلم والمتلقي وكلّ الظروف الخارجية المحيطة بها.

* **الدّراسة الوصفية:** (هذا المبدأ يلغي المقاربة المعيارية للغة التي تبناها النحاة) دعا سوسير إلى دراسة اللغة كما هي وليس كما يجب أن تكون، بالتركيز على المكوّنات والعناصر الدّاخلية للغة من حيث موقعها في التركيب اللغوي إلى جانب بقية العناصر، ووظائفها، دون الالتفات إلى تاريخها وما ينبغي أن تكون عليه اللغة.

2- أهم ثنائيات دي سوسير: تقوم دراسة سوسير على مجموعة من الثنائيات، ولكي يحدّد هذا العالم موضوع اللسانيات، ميّز بين ثلاث مصطلحات أساسية، وهي:

أوّلا- اللغة/ والكلام/ واللسان: هذه المصطلحات الثلاثة كانت عند العلماء السابقين لسوسير (وعند عامة الناس أيضا) تمثّل شيئا واحدا، فكلّ ما يُنطق من الأصوات، وما يُعبّر به من الكلام، وكلّ ما يُسمع من مفردات وتراكيب هو لغة أو كلام أو لسان، دون تمييز بين هذه المصطلحات.

أمّا اللسانيون المحدثون (الوصفيون) على رأسهم سوسير، فقد ميّزوا بين المصطلحات السابقة، وذلك من أجل تحديد الموضوع الحقيقي للسانيات.

* **فاللغة (le langage)**: هي الظاهرة الإنسانية بصفة عامة، وتشير إلى القدرة الفطرية لدى البشر على استخدام اللغة وتعلّمها، أي اللغة كقدرة عامة وليس كنظام معين. فاللغة ملكة إنسانية تمثّل ما يتميّز به الإنسان عن باقي الكائنات الحيوانية. فنقول عن الإنسان أنّه عاقل وَذُو لغة...الخ، ولكن هذه اللغة لا يمكن إدراكها إلاّ في إطار مجتمعي معيّن، ويسمى حينئذ (اللسان)، واللسان يختلف من مجتمع إلى آخر. وبالتالي، فإنّ اللغة (**le langage**) أعمّ من اللسان (**langue**).

* **اللسان (la langue)**: اللسان هو في الوقت نفسه نتاج اجتماعيّ لملكة الكلام، وكذلك للاصطلاحات والاتفاقات الضرورية التي يتبناها المجتمع ويتفاهم بها، وينتج الأفراد على أساسها كلامهم (**la parole**).

يختلف اللسان عن اللغة في كونه يُقصد به لغة معيّنة (كالعربية، والفرنسية، والإسبانية...) فهو يمثّل نظاما من العلامات التي تعارف عليها أبناء مجتمع معين وتتوارثها الأجيال، وتمكّنهم من التواصل فيما بينها، ويكتسبه الفرد في المجتمع ولا تمنحه له الطبيعة.

واللسان حسب سوسير جوهريّ (وهو الجزء الاجتماعي لملكة اللغة)، وهو نظام نحوي له وجود في عقل الجماعة، لأنّ اللسان ليس له وجود كامل عند الفرد، بل يوجد وجودا كاملا في عقل الجماعة، وهو نظام مستقلّ عن الفرد، ويصفه سوسير بأنّه ((رصيد مستودع في أذهان الجماعة) أمّا الكلام فهو خاص بالفرد، وبرغبته وذكائه وخصوصياته...الخ.

* **الكلام** :**(parole)** هو الاستخدام الفردي للسان، أي الطريقة التي يعبر بها الأفراد عن أفكارهم من خلال إنتاج الأصوات والكلمات، وبالتالي، يُعدّ الكلام فعلًا فرديًا وغير منتظم، حيث يعكس أسلوب كل شخص، فالأفراد لا يتكلّمون تلك القواعد المجرّدة الكامنة في الذهن (أي اللسان) بل ينشئون كلاما ماديا ملموسا، منطوقا ومكتوبا، انطلاقا من القواعد المجرّدة والكامنة في أذهانهم. ويختلف كلّ فرد في كلامه عن الآخر في الأسلوب والإيقاع والنبر والتنغيم، وكيفية النطق وبناء الجمل....

اللغة = اللسان + الكلام.

(يعني أنّ اللغة (langage) تتضمن الجانب الجماعي (langue) والجانب الفردي (parole))

وكذلك قد يكون لدى الفرد قدرة على التواصل مع أصدقائه الأجانب، لكن لا يعرف لسانهم، فلن يتمكّن من التفاعل والتفاهم معهم، وهنا يظهر الفرق بين اللغة واللسان الذي يتمثّل في القدرة والأداة، فذلك الشخص يملك القدرة (أي اللغة) لكنه يفتقر إلى الأداة (أي اللسان).

ملاحظة مهمة: إنّ تمييز سوسير بين اللسان (langage) باعتباره نظاما مشتركا ثابتا، والكلام (parole) باعتباره استعمالا فرديا متغيّرا، هو كذلك تمييز بين ما هو ثابت وما هو متغيّر في اللغة.

نستنتج أنّ سوسير يميّز بين مستويين:

أولاً — الموضوع العام : حيث إنّ اللسانيات تُعنى بـ **اللغة البشرية** كظاهرة نوعية: كيف تعمل اللغات؟ ما الذي يجعلها نظاماً رمزياً؟ ما طبيعة العلاقة بين الدال والمدلول؟

هنا يتحدث عن **اللغة** بمعناها الواسع.(langage)

ثانياً — الموضوع العلمي المباشر (ما يُحلَّل فعلياً): اللساني يحلل **اللسان** :**(langue)** النظام الخاص بكل جماعة لغوية.

لأن اللسان: - منظم وبنيوي / - مشترك اجتماعياً / - قابل للوصف. / - يمكن مقارنته بأنساق أخرى.

نستنتج ممّا سبق إلى أنّ اللسانيات حسب سوسير: علم يدرس اللغة البشرية بوصفها ظاهرة نوعية عامة لكن: لا يمكن دراستها إلا عبر ألسنة معيّنة باعتبارها أنساقاً ملموسة.

فاللغة هي الهدف، واللسان هو الطريق. فهو يريد دراسة "اللغة"، لكنها لا تتجسّد إلاّ في "لسان"، مثل: مثلما نريد فهم "الحاسوب" كظاهرة، لكنّنا لا تستطيع ذلك إلا بفحص جهاز محدّد على الطاولة.

ثانيا- الآنية (synchronie) والزمانية (Diachronie): الأمر في هذه الثنائية متعلّق بالمنهج، أي الحديث عن الإجراءات التي تُعتمد في دراسة اللغة، حيث لم تكن اللسانيات السائدة في القرن التاسع عشر تميّز بين الدراسة الآنية والدراسة التاريخية.

يُعدّ تزامنيا (أو صفيا، أو آنيا) كلّ ما يتعلق بالجانب الثابت، فالآنية (أو الوصفية أو التزامنية) تعني دراسة اللغة دراسة وصفية للعلاقات بين العناصر اللغوية في حالة معيّنة (Etat de langue)

ويُعدّ تاريخيا (أو تعاقبيا) كلّ ما يتصل بعمليات التطور، فالتعاقبية تعني بتاريخ اللغة وما يطرأ عليها من تطوّرات صوتية أو نحوية أو صرفية أو دلالية خلال فترات زمانية متعاقبة، ويُعتمد في هذه الدراسة على النصوص المكتوبة التي تُعتبر شواهد تاريخية بالنسبة للغة المكتوبة. وقد قدّم سوسير الآنية على التاريخية، لأنّ البحث اللغوي في تلك الآونة قد خصص للتاريخية وحدها تقريبا، ويتمّ تحليل اللغة إلى جزئياتها وتحولاتها، بدلا من إدراكها بوصفها كلا ونظاما.

لم ينكر سوسير أهمية الدراسة التاريخية، لكنه ألحّ على الفصل بينها وبين الدراسة الآنية كي لا تغلب النظرة التاريخية على النظرة الوصفية الآنية. ولكلّ منهج مبادئه، فالمنهج الآني استقرائي ساكن، والمنهج التاريخي حركي تطوري.

ثالثا - العلامة اللغوية: اللغة عند سوسير "نظام من العلامات"، تتكوّن كلّ **علامة لغوية** من عنصرين، وضع لهما سوسير مصطلحين للتعبير عن هما، وهما:

أ - le signifiant (الدّال): وهو حقيقة نفسية، أو صورة سمعية تحدثها في الدّماغ سلسة الأصوات التي تلتقطها الأذن، وتستدعي هذه الأصوات (صورة ذهنية) في ذهن المستمع.

ب - le signifié (المدلول): صورة ذهنية تستدعيها سلسلة الأصوات هذه في ذهن المستمع. فهو لا يقصد بـ (الدال) ذلك الصّوت المسموع، أي الجانب المادي البحت، بل ذلك الأثر النفسي الذي يتركه الصّوت فينا.

فالعلامة حسب سوسير لا تربط اِسما ومسمّى، بل تربط **مفهوما** أو فكرة (concept) **بصورة سمعية** (image acoustique) مستبعدا الجانب المادي، ثمّ استبدل مصطلح (**المفهوم**) بمصطلح (**المدلول**) ومصطلح (**الصورة السمعية**) بمصطلح (**الدّال**).

وانطلاقا ممّا سبق، يحصر سوسير العلامة اللغوية في (لدّال) و(المدلول) وهما حقيقتان نفسيتان. ويذهب دي سوسير إلى أنّ *دلالة العلامة تنشأ من عملية الرّبط بين الدّال والمدلول. والعلاقة بين الدال والمدلول* ***اعتباطية*** *غير معلّلة.*

صفة الدال الخطية (أو التسلسل الخطّي (linéaire**)**: تتعلق صفة الخطية **بالدال**، أي الصورة الصوتية دون المدلول، حيث إنّ الركيزة الأساسية للدال هي الصوت، وأثناء عملية التّلفّظ فإنّ الصوت يتسلسل بتسلسل الزمن في خطّ أفقي، وهذا ما يسميه دي سوسير "سلسلة الكلام" ((la chaine parlée).

فاللغة عبارة عن مجموعة من الملفوظات التي تتخذ شكلا خطيا يُطلق عليه السلسلة المنطوقة، هذه الملفوظات تنجز وفق الزمن، وتُدرك بالسمع عبر تتابعها مشكّلةً في ذلك سلسلة.

مثال: كلمة (كلام) ننطق حروفها بتسلسل وفق خطّ أفقي كالتالي: ك + ل + ا + م

الكتاب + مفيد + ل + الطالب

رابعا- العلاقات التركيبية والاستبدالية: تنتظم العلامات اللغوية، حسب سوسير، على المحورين التاليين:

***محور العلاقات التركيبية Axe syntagmatique**: تنبني هذه العلاقات، حسب سوسير، على صفة اللغة الخطية linéarité، تلك الصفة التي لا تقبل إمكانية لفظ عنصرين في آن واحد، بل يقع هذان العنصران الواحد منهما إلى جانب الآخر ضمن السلسلة الكلامية. وترتبط العلامات ببعضها بعلاقات يحددها النظام اللغوي في كل لغة. نحو: راجع + الطالب + دروسه/ تشكّل جملة (راجعَ الطالبُ درسَه)

***محور العلاقات الاستبدالية Axe paradigmatique**: هي التي تحقق وظيفتها ضمن إدراك **الترابط الذهني** الحاصل بين العلامة اللغوية والعلامات التي يمكن أن تحل محلها، وبتعبير آخر؛ هي علاقات تربط بين وحدات معينة من المركب ووحدات أخرى يمكن أن تحلّ محلها في نفس السياق. نحو:

راجع / نظّم / رسم / تناول/ ...الخ

الطالب / الشاعر / الفتاة / الشيخ ...الخ

دروسه / قصيدته / منزلها / دواءهم ...الخ . فالكلمات التي يمكن أن **تتخذ الموقع نفسه تنتظم في عقل المتحدث،** ليختار منها المناسب: فالأسماء تنتظم في النظام اللغوي في نسق واحد، ويختار منها المتحدث الاسم المناسب في الأداء الكلامي، وهذا ما يسمى بالعلاقات الاستبدالية.

فإنتاج النصوص وتلقيها وفهمها وتحليلها يتمّ عبر مستويين متداخلين، وهما: العلاقات التركيبية بوصفها مستوى تجسّده العلاقات النحوية – الصرفية، والعلاقات الاستبدالية باعتبارها تمثل مستوى يجسّده المعجم، ولا يمكن الفصل بينهما، إذ إن غاية الوظائف النحوية هو المعنى، وأي تغيير في بنية المفردة هدفه تغيير المعنى.